صَدِيقَتِي . . .

العنوان: صديقتي.

الكاتب: بهيليل فضيلة .

الطبعة الأولى السداسي الثاني: 2023.

تصميم الغلاف: دليلة حسناوي.

ISBN: 978-2-494172-68-5
EAN: 9782494172685

دار الأمير للنشر والتوزيع والترجمة Maison D'édition El Amir
3-Boulevard Charles Moretti.
13014 Marseille
assoelamir@gmail.com
الهاتف:0033760734119

الآراء الموجودة بالكتاب لا تعبّر بالضرورة عن الجهة الناشرة

—

جميع الحقوق محفوظة

لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقيا أو إلكترونيا أو أية وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر.

EL AMIR
MAISON D'ÉDITION

إهــداء

إلى كل صديقة...

خائنة

"صرخة البقاء"

أمتلئ بهذه الغربة التي تتسرب عبر مسامات جلدي، بنعيق غراب ينقر بثور ذكرياتي، بكل هذا الفراغ الرهيب أمتلئ، في أرض لا تشبه أشجارها الكثيفة نخيل مدينتي الشامخة عراجينا، ولا طينُها الأحمر الندي يشبه رمل العرق الذي تسفه عيونُنا وتتسرب إلى أنوفنا وأفواهنا حباته كلما هجع الربيع مفسحا للصيف طريق الأمسيات والسمر .أنا القادمة من أرض أهلها لا يجيدون كثيرا التعبير عن الحب لكنهم يحبون بسخاء، تفرحهم أبسط الأشياء وأصغر التفاصيل، لكنهم يعجزون عن إظهار سعادتهم لولا أن ملامحهم تفضحهم ، أرض تتشرّب صقيعها كل صباح ليمتد الدفء داخلها مسعرا بشمس المودة التي تنفخ فيه روح الحياة.

صوت مغن حزين يخترق سطح جارتي غَنُّوجة لتضغط كلماته قلبي كما كماشة تزداد ضيقا كلما حشوتها عمدا بالتذكار ، فيزفر دمع شوق لأهلي هناك.

"يا عيني نوحي ...يا خِلاله رنّي..

نبكي على حبيبي...بعد العشرة بدّلني"

شيء ما تدحرج نديا على خدي، رعشة امتصت تعرّقي قبل أن أشغل مروحة السقف المتدلية و أضغط بكسل زر مشغل التلفاز المكلوم بالأخبار . أتمدد بتثاقل على أرض خنقتها رطوبة لم آلفها ، أدس جسدي تحت اللحاف تعبرني صورة أمي وهي تمدد رجلَيْ أثناء النوم معتقدة- كما أهل مدينتي -أن انكماشي أثناء النوم سيعيق نموهما . الصوت المبحوح يفتت ما تبقى من وجع ذرته الصمايم :

"لو نشكي همّي للحجار يذوبوا ...لحجار يذوبوا ...

لبحر ينشف ...والصغار يشيبوا"

فأشيب و تشيب غربان شوقي التي ظلت تنقر دون ملل بثور ذكرياتي . زوجي أو" ضربة الحظ "كما تسميه أختي، لم يعد من عمله بعد، وحبيبي الذي مارستُ معه لعبة الكبرياء يرقد هناك متوسدا جدع نخلة كانت يوما سرير أمنياتنا .قبل أسبوع كنت هناك ، بحوش منزلنا أسند رحى رأسي على الفراغ وصوت حسني يئن من خلف جدار" بّا موسى "ذارّا ملح" عين ورقة "على جراحي، يجتر مثلي ألبوم الذكريات :

"مازال سوفونير عندي ...ما تقوليش راه نساني"

وكان النسيان بلسما ظللت أفتش عنه بكل الأماكن . يتعبني هذا القلب المترهل الذي يعوي داخلي دون توقف كلما ذكرتني رياح الحنين، تتعبني ابتسامة أرتديها عند كل وجه يقابلني ، وفي كل جلسة شاي مسائي لأتفنن في ارتداء الأقنعة ويتفنّن في سخريتهن المدسوسة كلفافة تبغ تبنجت تحت شفاههن السمراء ، أتظاهر أمامهن بالنسيان غير أنني عند أول لقاء به في منزل عمتي الشافية ذاب قناعي مبلِلا سجاد صلاتي وغدوت أمامه عارية من كل شيء ... إلا الوجع.

كانت عمتي الشافية هي الشاهد الوحيد على حبنا منذ طفولته ، لم ترفض طلبي رؤيته وهو ابن أختها وابن جارنا" بّا موسى "، فتحت لنا صالة الضيوف وقد زينتها بصينية شاي وحلوى الغريبية ، يومها لم ينظر صالح إلي ، اكتفى بإلقاء السلام من بعيد احتراما لكوني الآن" ممنوعة"، وبقيت أمامه أتساقط ... أتشظى ...تخدش بقاياي الزربية التي تناثرتُ فوقها وما امتدت يداه لتجمعني ، وحدها عمتي بعطر rêve d'or رشتني ، بكيت يومها ونمت كطفل في حضن عمتي ، كنت كشجرة التين الحمقاء

التي أرادت معاقبة الفلاح فلم تثمر ولم تعلم أنها كانت تعد لنفسها نعشا يزفها للنسيان، حين استفقت كانت عمتي الشافية تجالس زوجها بصالة الضيوف وكؤوس الشاي مزهوة بتردد أصوات رقصاتها على صينية النحاس .

رحت أتوسد كبريائي العنيد الذي رفض مسامحة زواجه قهرا من ابنة عمه، حتى بعدما طلقها وأرسل أمه لخطبتي.. لم أسامحه .لا شيء وصلني بعد مغادرتها خائبة غير زقزقة عصافير عششت على شجرة الرمان الفارعة بحوش الدار، وحمام وقت العشية يصفق بجناحيه متوددا لخليله، ذكرني بأغنية كثيرا ما رددها خالي عازفا على آلة العود ، ونحن بجلسة شاي صيفية نسائمه :

"مسكين حمامي اللي كان يْبَركم في الليل

في وكرو هاني طيروه الناس الشّينين"

فيضيق صدري الموبوء معلنا بداية هزات لا تنتهي إلا بشهيق ضمدَتْه دمعات يتيمة ، أصفعها بمنديلي موغلة في الكتمان .

عاود الصوت المبحوح كأنه يطلع من أعماقي، كان هذه المرة مختلطا بصراخ جارتي غنوجة، أكانت ترقص على الإيقاع أم كانت تطارد أولاد الجيران الذين تعودوا محاصرة دجاجاتها مستمتعين. تثاقلت أنفاسي وصار صدري يضغط عليّ يكاد يعتصر قلبي، الرطوبة هنا لا تطاق حاولتُ الجلوس فلم تسعفني ضربات قلبي المرتجفة كطائر خائف ، ولا طاوعتني قدماي الثقيلتان، أمد يد الرجاء نحو SERETIDE لكنه بدا لي بعيدا... بعيدا جدا..

الصوت المبحوح اختنق... أصوات مختلطة اخترقت طبلة أذني... أصوات أجنحة الدجاج كأنها كانت تطير ..غنوجة تصرخ ... الأولاد ...الدشرة بأكملها كانت تصرخ، ووحدي كنت أخوض حرب البقاء محاولة مد يدي للدواء.

انقطع التيار الكهربائي أدركت ذلك حين غابت صور التلفاز التي آنستني رغم وضعه على الصامت، وأجنحة المروحة المعلقة التي بدأت تخور . استشعرت وجود خطر ما، لم أعره اهتماما كان خطر عدم وصولي للدواء أشد وأعظم.

رأسي يدور و لوحة الفنان "جرديني" التي أحضرتها من زيارتي الأخيرة لمدينتي، هي الأخرى قفزت من الجدار وظلت حول نفسها

تدور .أغمضت عيني بارتجافٍ من يحاول ألا يرى شبحا ثم فتحتهما من جديد، ابتسمت المرأة الملتحفة داخل اللوحة، ليأسي أشرت لها أن تمدني بالدواء ، لكنها قهقهت من تحت لحافها" بُوغْوينة "ثم تحول صوتها لنحيب مخيف .رحت أجر قدماي ، وحدهما يداي كانتا الأكثر تجاوبا وجرأة، رائحة دخان تسرب من الباب الخشبي ومن النافذة قادما كعجاج من منزل غنوجة، كأنه كان يقتفي أثر الصوت المبحوح:

"يا عيني نوحي..يا خلاله رنّي" ..

وتدفقت عيناي نوحا على حالي .انسلخت ركبتاي من حبوٍ فرضته يداي فوق أرضية خشنة ورحت أسابق الزمن، كل دقيقة تأخير تعني وداعي الأبدي . تسرب الدخان بكثافة أكبر ، روائح حطب البلوط والتين وقد جلدتها ألسنة اللهب، هي نفسها الأشجار التي أغرمت بها يوم وصولي هنا عروسا، كانت أمطرت طوال أسبوع زفافي ، وكنت أقول لمحمد وأنا أملأ رئتي بشهيق عميق:

"الله !كم أحب رائحة الأشجار حين يدثرها المطر"

تلك الأشجار بدت لي- وهي تُجلَد نارا -مخيفة و دخانها المحروق يغتصب أنفي، يحتل رئتي الموبوءة عن آخرها فلا يترك لي فرصة أمل العيش .اختلطت أصوات الصياح ، عين على الدواء وعين على اللوحة الطوافة بالسقف، اخترق سمعي فجأة صوت عود "علّا "المذبوح ألما، يصلني صداه من بعيد قبل أن يمسخ هو الآخر إلى صفارات إنذار .أدركت موتي وشيكا إما اختناقا وإما حرقا .حاولت الزحف للمرة الأخيرة ويدي اليسرى تمتد إلى الطاولة، سنتيمترات قليلة تفصلني عن دوائي، ألسنة اللهب ما عادت تستحي، تطاولت على منزلي فامتدت تطل عليّ من بابه الخشبي، تُكسر أضلعه فلا أسمع إلا فرقعات كنت أعشقها على موائد الشتاء الهضابية ليلا، لكنها بدت لي الآن أكثر توحشا وأكثر التهاما لحطب بابي.

واصلت اللوحة هبوطها والمرأة الملتحفة فكّت عن وجهها الحايك الذي أحكمته بشفتيها وقد برقعه لعابها، كانت قد تحولت لصورة المرحومة جدتي تمدُّ لي يدها أن" تعالي "وأنا بين دهشة وخوف وبين موقف لم أجد له خلاصا كنت أدرك أن الموت اقترب مني بالقدر الذي كان يفصلني عن يد جدتي .تذكرتُ أمي وهي

تنفض ما علق بحجرها من طُمّينة ذرّتها الرحى ، تذكرت مسبحة والدي وهو يعدّ حباتها بين أصابعه ذاكرا عقب كل صلاة، لاحت لي صور أخواتي، إخوتي ..كلهم اصطفوا في حلقة حول لوحة كانت لامرأة ملتحفة قبل أن تتحول جدتي.

صرخت بكل ما تبقى لي من رغبة في الحياة، أول صيحة وآخر نداء حاولت فيه البقاء على قيد الحلم ، على قيد الحياة. وجاء صوت غنوجة مبحوحا يقفز من خلف الباب الملتهب :

"جارتي الصحراوية ...جارتي الصحراوية "

وكأنها تذكرتْ بصرختي أن المنزل لم يعد فارغا كما كان، كان صوتها طوق نجاة حتى وإن لم تقتحم نيران الباب، يكفيني أن يعلم أحد ما في هذه الأرض أنني بالداخل أصارع الربو والخوف والنار معا حتى وإن لم أنجُ بعدها .

تراجعت الصور لتعود إلى السقف في دوران متسارع حول جدتي اللوحة ، كان المشهد أشبه بطقوس إفريقية ، رأيت النار تلتهم السقف فتختفي جدتي ويختفي باختفائها الجميع ، أصوات مختلطة ظلت تتشاور خلف نيران الباب، والأوكسجين الذي شُحّ

بالغرفة لم يعد يسعفني على الحركة، كنت أشعر بقطرات العرق حمّمت جسدي إلى أن التصقت بي ملابسي، أدركت اقتراب أجلي رحت أرفع سبابتي للشهادة دون أن أجد نَفَسا يبلع ذرات الأوكسجين السابحة في الهواء والتي لم أتخيل يوما أنني سأحتاجها حد الموت، لاحت لي دروس العلوم الطبيعية والفيزياء وعالم الذرات، تذكرت كيف كان أستاذ الفيزياء عزيز يرسم لنا الرمز العلمي للأوكسيجينO_2 ، فمن أين لي هذه الذرة العجيبة التي أدركت قيمتها الآن ! وبدل أن أُلقِن نفسي الشهادة رحت أردد كمحموم تعرق حد القرف :

"ذرة أوكسجين يــارب ...ذرة أوكسجين "، شعرت أنني أنقبض .. أنكمش ..أضمحل...

قطرات ماء ...فرج... غيث...

إنها غنوجة وشباب الدشرة يرمون دلاء الماء، لم تنتظر غنوجة أن ينطفئ لهيب الباب، ارتمت محتمية ببرنس زوجها يقطر ماء وركضت مباشرة على اليمين قبل أن تتعثر بعتبة الغرفة وتسقط على الأرض .يدي ظلت رغم الوهن تشير إلى SERETID الذي هرعت إليه غنوجة، تسعفني وأنا ألهث فاغرة فماً تدلى

لسانه عطشا وخوفا، لفّت على عجل بذراعيها أسفل إبطَي وراحت تجرني، بينما رجلاي ترتطم دون شعور بكل ما كنت تركته على الأرض؛ مهراس وأعشاب قمت بدقها لأصبغ بها شيب شعري مع علبة حناء بنت الريف ، مكنسة الحوش، قارورات فارغة كنت سأملؤها لاحقا.. كلها بعثرتْها رجلاي ونحن نعبر الحوش الصغير ، صور ظلت هي الأخرى تتبعثر كما الأشياء الملقاة على الأرض والتي ختمتْ عليها رجلاي دون توقيع.

خرجنا ...ظلام في وضح النهار ، دخان كثيف قادم من الغابات، وسماء غاضبة في دكنتها تنبئ بقدوم القيامة . أصوات تكبير تحوط المكان ، بكاء أطفال مذعورين يطلع من الشاحنات التي قدمت لنقل العائلات إلى أماكن آمنة.

لم أدرك حجم الكارثة إلا حين صار جسدي خلف الباب ، كان مشهد جارتي فايزة ، وهي تنوح على والدها الحاج مسعود الذي رفض أن يغادر معنا، يشرع للخوف بقلوبنا نوافذ وأبوابا، ظل يصرخ في وجه شباب الدشرة وهم يحاولون إبعاده عن منزله الملتهب وقطعانه التي خمد صياحها:

"هذه أرضي ...دمي ....أُحييها أو أُدفن فيها"

وراح يرمي بالمجرفة اليدوية ترابها المقدس ليخمد النيران. ارتمينا بعشوائية داخل سجون شاحنات الهايفي، لا نحمل غير دعوات النجاة سرا وعلانية، نراقب بعيوننا الوجلة تحركات رجال الدشرة وهم يراكموننا بالسيارة غير آبهين لعددنا الذي فاق حملها ونحن نبكي دما كما الحاج مسعود الذي ظل يرمي التراب في غضب على النيران وصوته يخفت دون أن يتوقف تماما:

"هذه أرضي ...عَرَقي ...دمي".

جارتي أمال احتلت مساحة أكبر منا جميعا، حاولتْ أن تنكمش لتترك مساحة تتحرك فيها أكتافنا المحنطة، بحجرها ابنها وليد، تحضنه كأنها تمحو من عينيه اللتين غرستهما بصدرها صور الموت .غاب صياح الديكة وخوار ثيران الدشرة، وامتزجت رائحة شواء جلودها بروائح انصهار البلاستيك والأثاث فصارت أكثر قرفا.

انطلقت الشاحنة الصغيرة وارتفعت بانطلاقها تكبيرات من ظلوا هناك يخوضون حرب البقاء .تقاطعت سياراتنا الثلاث مع شاحنات الجيش الشعبي الوطني الذي توقف برهة ليطمئن علينا ويسأل عن مدى تحكم رجال الدشرة بالحريق، ثم واصلوا

صعودهم إلى الدشرة المنعزلة عبر منعرجات ومسالك صرنا نعبر مثلها الآن، وقبلهم كانت شاحنات الحماية المدنية تتوجه لنفس المكان .لم يكن النهار نهارا كان ليلا مضاءً باللهب، ازددنا رعبا باقترابنا من معبر النار، كل من كان راكبا لا شك تخيل نفسه يشوى على النار، سيفقد يده أو رجله وفي أحسن الأحوال سيفقد ملامحه .صاح السائق باتجاهنا يأمرنا أن نبلل ملابسنا بالماء الذي رموه قارورات فوقنا قبل أن ننطلق.

المشهد قيامة"... وما أدراك ما الحُطمة، نار الله الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، إنها عليهم موصدة .."تذكرتها ولاحت لي صورة الجامع الصغير وأنا أقف أمام الطّالب أردد الآيات...قبل أن أمحو بالصلصال لوحتي.

السائق يصارع كثافة الدخان الأسود والرمادي بعدما ارتفع تكبيره ومن معه، فرُحنا مثلهم نكبر بأصوات مرتجفة خائفة والأطفال يلتصقون بأمهاتهم في بكاء موجع وأنين .التصق بعضنا ببعض ، بينما كانت علبة دوائي طفلي الوحيد الذي ظللت أتمسك به طوال هذه الرحلة المرعبة .مصيرنا حتما واحد والموت لا يبعد إلا بمقدار شعرة، أكانت شعرة معاوية ستنقذنا منه؟.

ظل السائق يصارع الدخان وألسنة التنين التي كانت تقذف اللهب من عمق أفواه الغابة تلاعبت بها الرياح، فلم يصلنا إلا ما تطاير فتات جمرٍ لم نشعر به لهول الموقف حتى وهو يترك بثورا صغيرة على أذرعنا التي كانت تضم بعضها متلاحمة، ونحن نتوغل أكثر داخل غياهب الغابة .حين عبرنا ذلك الطريق الوَحش طافت عيوننا تتفقد سلامة الجميع وعلت التكبيرات هذه المرة أكثر انشراحا واستبشارا ونحن نقبّل بعيوننا وقلوبنا نساء ورجال الهلال الأحمر الجزائري الذين احتضنوا ما لاقينا من أهوال يوم الحريق .

وهجعت الأرض بعد أن برقعت مساحاتها النيران ودكت أشجارها الباسقة دكا، وعاد الماء يخرج من بين الصلب والترائب ....ليعلن عن عودة الحياة.

طرقة...طرقتان وباب يفتح على أمل ، كنت أحمل طبق المسمن الذي أعددته خصيصا لغنوجة، دخلت فطلعت من الحوش ألوان قوس قزح ، شفتاها بلون الرمان وعيناها بخضرة "جنان حمو "وشعرها الذهبي كسنابل حصدناها صيفا مع" عمي الربعي "، يختفي جزء منه تحت فولارة سماوية تزينت ببتلات .

كانت غنوجة قد وضعت على الصينية إبريق شاي صحراوي علمُتها صبر التظائه على الجمر، وعلى المائدة الخشبية بلا طلاء، صففتْ في صحن مكعبات" لبراج "لأضم إليه طبق" المسمن". قلت ممازحة وأنا أرفع إبريق الشاي العبق بالنعناع لأفتتح جلستنا المسائية:

"الله يبارك في تلك الصرخة التي كانت فاتحة مواسم صداقتنا وجيرتنا"، علت ضحكتها وأنا أناولها فنجان الشاي، رحت أغني وفاء للتذكار رغم وجعه :

"ياعيني نــوحي ... يا خلاله رنّي"

وغنوجة تهز كتفها اليمين انتشاءً، رافعة يدا للأعلى تلوح بها مع إيقاع الأغنية، بالأخرى تحمل فنجان الشاي، رشفت منه رشفة قبل أن تضعه أمامها على حافة الطاولة وتصفق متمايلة، ينبعث صوتها ببحة مغرية ردا على غنائي:

"يا بنية العرجون رُدّي عليا...يا بنية العرجون رُدّي رُدّي عليا"

ولاح بساط الود الذي جمعنا لحظة محنة، ليتحول جلسات أمن وفرح نحتسيها مع التذكار.

"المجد للنسيان"

يعود موج البحر يحضن شاطئه، تعود النوارس والكورنيش لأول عهدها، يعود المطر يبلل زريبة كانت لك، وأبدا لم تكن خرافها لي .يعود الشتاء الأبيض يكسو أسطح المنازل القرميدية، تتشرب جدرانُها المطر، تعود الحياة لعالمك هادئة كما كانت، بفوضى أطفالك الصغار التي اعتدت على مواعيدها وأصواتها . تعود لتسكن محار ذاكرتك، تلبسُ جلباب صمتك الذي كبلك طويلا تشعل أعوادا من حطب ركنته أمُك في إحدى زوايا المطبخ ، ليوم مات فيه الصرصور بردا وقهرا، وجمعت فيه النملة أولادها الصغار حول الموقد .لا شيء يعنيك بعالم خارج أسوار بيتك الصغير الدافئ، لا شيء مهم .تمتنع ألسنة النار أن تمتد للحطب العتيق كي تشتعل .تمد يدا لمحفظتك القديمة ، لا شيء يستحق من أوراقها البقاء، تشعلها مغسولا بمطر الهذيان .لا شيء بعد اليوم يستحق أن يعلق بالذاكرة، المجد كل المجد للنسيان؟ فتختفي الحروف ، تحترق، يتوهج وجه زوجتك انتصارا، هي التي كانت ترى في كل صفحة تلدها ضرة، وتخشى أن تنجب من غيرها الأبناء .يعود لبيتك الصغير ملامحه، رتابته، براءته، ولي أنا

الصرصور عطش الصيف وغربة الشتاء، لي أكواب الجفاف كنت أملؤها سرابا، كنت أملؤها بأحلام وأوهام وأقلام أبَحْتُ دماءها بفخر مرددة أنني" أنثاك ".

كنتَ هناك يا ابن البحر وكنت هنا أسفّ من رمال خيبتي ما خلّفَته كذبتنا من قهر .لأعود مرة أخرى برقم شهادتي التي ورثتها منذ ولادتي ، وأظل رقما ثابتا بدفتر عائلتي لرجل عظيم هو" أبي" ، وقد خلتني سأغادره يوما لأكون رقما آخرا بدفترك، رقما مُهماً يسكن وهم عوالمك.

"وصار الدم... ماء"

فتحتُ حقيبة سفري، أتفقد ما خفّ حمله وثقُل وزن ذكراه، كنت لا أهرب من أحد سوى نفسي وأنا أراني أتحوّل رمادا نثرَته أختي بواد غير ذي زرع، بعدما أججَتْ نارَ الفتنة بالبيت، جاء صوت أمي مبحوحا بسعال كأنما سفّت شيئا من ذاك الرماد :

-"كل عداوة تُنسى أو تُداوى، إلا عداوة الإخوة".

ولم يرد عليها غير قِط ظل يموء قرب شجرة التين التي ذبُلت هي الأخرى كعلاقتنا وأجدبت. أغلقتُ حقيبة خيبتي ورحت أشعل قلبي بعود ثقاب أقيم وليمة ... ليست لأعشاب البحر ... إنما لأعشاب ظلت في الحشى تخشى نار شوق قد تهب من جنوب، موغلة في الحرمان" ..أوّاه"... ما أصعب نواح الجدران وهي تبلل أرض حوشنا، طين يذوب فوق طين، وحنين يشعل في الروح فتيل أنين.

الريح تعوي عواء ذئب مزقه الجوع، اصطكت أنيابه بردا فتوعد فريسته قتلا بشعا ، كان الذئب في الخارج بشر. كثر

العواء... وغرفة غربتي بلا نوافذ، عارية في وجه الحقد الذي يركض... يهرول... يدمر... ثم بلا صوت "يقتل" .

قبر جدي لم يجف بعد ثراه، وخالتي تقاسمت برنسه مع ابنة الجيران كصفقة خطوبة، لابنها المدلل العنيد، تلوك سم الغيرة، لابنها السعادة .. وسحقا لأصحاب البيت... سحقا للمواريث.

"غاب جدي" وسقطت أقنعة الباقين، مرغتُ وجهي في بياض عمامته، لم يكن خائنا أبدا ...إنما... لم يدر كيف يزرع بحقول أولاده معنى الإخاء ، هل غرّهم "بسراب بقاياه" الغرور، أم على قلوب أقفالها ... لا تصدأ ...كلما انحلت عقدةُ قُفلٍ عادت لتُحكَمَ من جديد؟ ...وأنا هنا... أحمل عصاي أهش بها على قلبي، أوقد جمر حبل الودّ الذي تمزق وانقطع، فساح الدم. هرّبتُ أبنائي أوراقي، فلأمُتْ أنا ... لكن ... كل المجد لكلماتي.

تفتّق الصدر ، نضح الدم منه وساح، وما عاد من خيط يرتق تلك الجراح، تقول أمي ثائرة متأثرة بأمثلة الفراعنة: "عمرو الدّم ما يبقى ميّه". لقد ساح يا أمي ذلك الدم، برقع فستان زواجي الذي لم يتم، قطراته المتقطعة المنتحبة فجيعة، تحمل لي زمن

الصبى؛ كنتُ... وكانتْ أختي ... كنتُ وكان جمال وجودها... تعثر حروفها... فوضى بكائها يهرج زوايا البيت .تزايدت قطرات الصورة التي كلما انساحت تحت قدمَي... تخثّرتْ تُبَرقع الصور... رحتُ أجمعها... أجمعني... أضمُّ ريح حليبها... ألتقط ما كنت ألقمه إياها قبل أن تشتد قبضة يمناها. أذكرها تلك الأنامل الوردية الصغيرة، كم كنت أشتهي تقبيلها، كم داعبتْ شفتاي - بخوفِ أُمٍّ – جلنار خديها... وكم ... وكم... وكم ...

عدتُ أفتح حقيبة غربتي، أستل ضمادة تُوقف نزيف التذكار... تُوقف وخز الصّبار... توقف هذا الزمن الجاحد أهله، المترهل بالبوار... وقبل أن أرفع ملامحي الشاحبة، وألملم هذه الذاكرة العنيدة المحاربة... كانت أنامل أختي كبُرت واشتد عودها، وبالمعول - الذي لم يحرث حبا بيننا - استباحت الصور، ركلا وشتما تارة... وبالسّبابة تتوعد القدر...كنتُ أواري فجيعتي وأختبي...أخيطها بما تبقى من ذكرى أبي... ودعوة لأمي ظلّت تقيّد معصمي.. لكنما المجنونة غيظا...لم تكتفي ... ظلت تجرّني من كتفي...وجها لوجه... حقدا لحب.. كان بريق خياطها قد مزّق الوتين... وزاد رفسا لما تبقى من شوق دفين... يأتي على بقايا براءتي،

واجما كجاثوم يطحن زورا كبدي، وما سلمتُ ولا استراحت - من شخير حقدها – حقيبتي...تذكرتُ حينها مأثورة جدي وقول أمي حبيبتي:

-"كل عداوة تُنسى أو تُداوى، إلا عداوة الإخوة".

" غليان"

وضعت هاتفي خارج التغطية. لم يكن بالقلب متسع لسماع صوت آخر غير صوت قلبي، فكل كلام مواساة لن يفعل لي شيئا، إنه فقط سيزيدني حزنا على نفسي وحسرة لا أكثر. ما تأكدت منه اليوم هو أن طيبتي صارت مصدر ضعفي يتسرب الوجع منها إلى أعماقي فأتهاوى دون أن ينتبه أحد، لأنني ببساطة أتهاوى بصمت. هذا الصمت هو الذي ظل يوهم الجميع أنني بخير وأني أعيش حياة مثالية بجمهورية أفلاطون.

سائق الحافلة كان يستعجل الوصول وروحي كانت تتمنى في سرها لو أن هذه الرحلة تطول، لأول مرة أحس زهدي بنفسي فلا أراقب عداد الحافلة خوفا كما كنت أفعل، ولا كانت مناظر الطبيعة خلف النافذة تشرح صدري، بالعادة لا أكلم من تجاورني بل أقطع الحديث إن حدث وسألت، فأكتفي بنعم أو لا، وفي أحيان كثيرة أجيب فقط بإيماءة رأسي.

الآن أجدني أتشبث بحبل مجالِستي علني أجد عندها دواء لهاته الروح المسافرة بلا وجهة وبلا هدف أيضا.

كانت مجالستي امرأة بسن أمي، زاد كلامها راحة لقلبي. كنت أدرك وهي تحكي لي أنها من زمن غير زمني، نساؤه بجلد الرجال وقلوبهن ببياض الحمام. راحت تشرع لي نوافذ روحها، حدثتني عن ابنتها الأرملة فرأيتني فيها، عن ابنتها الصغرى المطلقة فكنتها، عن اختها التي اخلطت دماء صلة الرحم بقطران قربتهما التي ظلت تسقيهما ردحا من الزمن حين كانا بمنزل والديهما. ولم أجرأ أن أحكي لها شيئا عني.

كنت أتخيلها ستتعرف علي إن حكيت لها كيف كُسر جناحي، وكان قلبي النازف متأكدا أنها ستشير لي بأصبعها حين أخبرها مَن كسره. فبالعادة من يغدر ويكسر هم الغرباء...أو الأحبة الذين خلناهم كذلك ، وما كان الأمر معي كذلك.

تسير الحافلة تاركة جبل مكثر خلفها، يصمت الركاب بين نوم وهاتف يعرض مساحات الفرح الوهمية. بينما داخلي تغلي مراجل من غضب وحقد ظللت أهدئه حينا بانشغالي مع المرأة الجديدة التي صارت فجأة أمي، أهدتني وصفة دواء للحلق بعدما شكوت لها التهابه المتكرر، رحت أدونها باهتمام هذه المرة مع أنه لا

صديقتي

شيء بهذا الجسد سيشفى...إنها طيبتي...عاهتي المستديمة التي لن أشفى منها أبدا مهما حاولت...

"شرف"

لم يكن يعنيها شيء سوى أن ترى اسمها يتصدر جرائد الثقافة . أشرعت قميصها بمكر تضبط زاوية النظر، فوقّع لها بدنسه وثيقة انخراط، كانت قدمتها لاحقا للمدير الذي مرغ أنفه على بقايا صديقه الأول، ثم وبوقاحة أهداها وسام شرف، لتتولى من بعده مهمة 'حماية الشرف'.

"امرأة للنسيان"

الشمس تزين هذا الصباح بأشعتها الدافئة، تداعب الجليد الذي بات يعانق الجبال والطرقات والأرصفة، كما قلبها المندس بين معطف صمتها تنهره كلما حاول الاقتراب من بئر الاعتراف. مدينتها الباردة يلفح صقيعُها وجوه المارة مثلها فيدثرون أنوفهم وأيديهم، وحدها ظلت تعبث بهاتفها بحثا عن رقمه وقد تجمدت أناملها.

ما من سيارة عبرت بجوارها أو حتى بالطريق المعاكس إلا وقامت بتفحصها كأنها تبحث عن هويتها، وهي هناك، تقف على أصابع الحيرة، لا هوية لها غير جنون تمتطيه، يضبط بتمرده فرسا جموح، بانتظار أن يطل حصانه الأسود بسرعته، لا تذكر ملامحه ، لكن تذكر جيدا ابتسامته الخجولة وهي تستقبلها حتى قبل أن تفتح باب السيارة، وقبل أن تنصهر داخل عالم على مقاس قلبها، وجدته يقول:

-"صباح الخير صخرتي الجميلة".

ابتسمت لم تجبه، كانت يدها ردت . قالت ممازحة:

-"صخرة ، لكن شاعرية، غريب!".

ضحكا في تواطؤ سري للحظة يقتصانها، لحظة يهربان فيها إليهما عسى أن يشفيا من الصمت وقهر الحرمان. رن هاتفه فخنق صوت رنينه. حاول أن يشغلها بأن أدار زرا أسود صغير، فأنّ كاظم "...آه..آه.. سلامتك من الآه...قبل ما تنزل صدرك أحسها بصدري والله".

هربت نورة وجهها خارج السيارة، تتفحص الجبال التي كانت تغادرهما في صمت، وتلك الشجيرات المكابرة التي تحاول الصمود متحدية جليد جبل عيسى، الكل كان يسير بمحاذاة الفرح، ووحدها ظلت تركض من خيبة لخيبة، تقنع نفسها مع كل قدر إنه حقيقي، فيسقط قناع وآخر وتتهشم بكاتم صوت فلا ينتبه أحد.

عاود هاتفه الرنين يقطع بموسيقاه المزعجة بحّة القيصر. بدا هذه المرة أكثر إلحاحا. خفضت نورة من مستوى الغناء طالبة منه أن يرد، لكنه كتم صوته مرة أخرى وغيّر وضعيته للاهتزاز. أومأ مبتسما: "غير مهم".

أدركت بحدسها الأنثوي أن الإصرار على مواصلة الاتصال لأكثر من مرتين متتابعتين لا يكون إلا لامرأة لها علاقة ما بمن تتصل. المرأة لا تكف عن الاتصال، لا تحب التجاهل وتصبح أكثر إلحاحا حتى وإن لم يكن الاتصال ضروريا. غير أنهما ما لبثنا أن أعادا صوت القيصر حتى تفوق صوت الاهتزاز بجيبه، فقالت تخفي غضبها:

-" ترد أم أرد؟"

ركن السيارة جانبا متباطئا علّ الاتصال ينقطع. سحبه من جيبه في تردد و ضغط زر الإجابة ليأتي صوت امرأة صارخا، اخترق جهاز هاتفه دون الحاجة لمكبر صوت:

-"أين أنت؟ ابنك يغلي من الحمى وأنا أكاد أختلع هاتفك بالاتصالات فلا ترد؟ إذا كنت قريبا فتعال بسرعة وإلا بحثتُ عن سيارة وأخذته بنفسي؟".

في ذهول تساءلت نورة "زوجة؟ ...وابن أيضا؟....وفوق هذا كله ..لا مسؤولية؟ ! ...ومن أكون أنا؟".

ضغط زر إنهاء المكالمة بقوله:

-" أنا في مكان بعيد، ابحثي عن سيارة.. لا تنتظريني".

مثله كانت نورة قالت ، لكن هذه المرة بعد أن ترجلت تطلّ من نافذة السيارة التي أغلقتها في غضب مودعة:

" وأنت أيضا.... لا تنتظرني..."

"صديقتي..."

كنتَ أنت أخيرا...تسير إلي بقامة شوق وغيمة حنين توشك أن تمطر، وكنت أنا طفلة تنبهر بألوان قوس قزح على شفتيك. تحاول أن تمد يدها لتداعب خطوط كفك كعرافة يسكنها الفضول، غير أنني لم أقل شيئا، اكتفيت بكلمات لم تكن تشبه الفرس الثائرة داخلي...وحدها عيناي ظلت تلتقط ملامحك التي ضاعت منذ أكثر من سبع سنوات....تغيرت ....لكن ظلت هالة الحب تلك موشومة على خدك، وحدي كنت أستطيع أن أراها مهما حاولت إخفاءها.

ياه....كم نتغير ...نكبر...تتمدد تعاريج أجسادنا لكن نظل بأرواحنا أطفالا؛ نتدلل، نضحك، نلعب، نركض خلف أمنياتنا. ولنا في كل يوم أمل جديد .تبادلنا جملا قصيرة متقطعة، جمل اقتضاها المقام المزدحم بغيرنا، وما كان غيرنا يعنينا. وحدنا رسمنا لنا حدودا تسعنا . أنهينا حديثنا عن أوراق لا علاقة لها بقصتنا، ودعنا بعضنا على عجل.

كان المكان مزدحما بالمارة، والغيوم تسابق أشعة الشمس في خجل مسائي. ذكرني أنني لا أزال أقف برصيف الشارع، أراقب عودتك مرة أخرى لمقر عملك وقبل أن أعبر الشارع الرئيسي

استدرت لأراقب خطواتك وهي تعود لمكانها الأول، كنت أفتش عن لحظة أحبسها بقلبي، وأكمل بها باقي أيام الفرح..

تذكرت ما أحضرتُ إليك، استدرت أريد أن أناديك غير أن تلك البوابة الرمادية كانت قد ابتلعتك، فواصلت بدوري المسير ألوّح لقلبي أن يرتد إلي وأنا أفتح باب السيارة قبل أن تدير صديقتي مفتاحها ونغيب في ازدحام الشارع الطويل ..

-"متى ستتوقفين عن حماقاتك يا ليلى؟ أحمد متزوج م..ت..ز..و..ج افهميها".

كانت تلك الكلمة تمزق ستائر غرفة حلمنا، وتنهي قبل الأوان فكرة الزواج به. لم أجبها لأني كنت أدري في سري أن كل الحق معها، غير أن صهيل الشوق داخلي كان يمتطي العصيان.

-"فوزية، لقد تزوج زواجا تقليديا، وزوجته لا تناسبه، قال إنها...".

لم تتحمل فوزية أسطوانة السخافة التي ظللت أحاول حشو عقلها بها، قاطعتني غاضبة:

-"كلهم يقدمون نفس المحاضرة: زوجتي لا تفهمني، زوجتي لا تحبني.. زوجتي لا تبادلني نفس الاهتمامات، وفي النهاية لا مضجع لهم غيرهن، أفيقي أيتها التينة الحمقاء قبل أن يسقط باكورك ويتركك عارية في وجه رياح الشتيمة ".

صوت مبحوح يطلع من هاتفي قبل أن أكتم صوته "كان ياما كان.. حكاية ترويها لعجايز للصبيان....." ، هربت نظري للنافذة أين كنا نعبر الجسر المعلق الذي شقّت سكة القطار المرابضة أسفله قلب المدينة، حتى غدت كأنها مدينتان منفصلتان، فما عبره أحدهم إلا وسخِر ممن كانوا سببا في إهدار المال العام على مشروع صعّب التنقل بنفس المدينة وأفسد جمالها .

رحت أفتح حقيبة يدي بحثا عن علبة الشكولاطة أغيّر بها مزاج صديقتي، وأشغلها عن موضوع أحمد الذي صارت تحقد عليه خوفا علي. بينما تظاهرت فوزية بغلق موضوع أحمد .

عاودت موسيقى الدوكالي تقطع صمتنا بعد أن أتم باقي المقاطع، ويدي تقلب بقلق داخل الحقيبة التي رميت فيها الهاتف : "كان يا ما كان ..حكاية ترويها لعجايز للصبيان.. قبل ما تنام...وفي بادي الكلام...كان يا ما كان". أجبت وسط حنق فوزية بصوت

خافت، وظلت هي تتمتم بعتاب اضطرني لإغلاق سماعة الهاتف بيدي كلما تحدثت، غير أنها تعمدت أن يسمع :

-"من الذي يزعجنا بإلحاح في مثل هذا الوقت؟ ".

لم تنفعني كفي في تغطية السماعة، كان أحمد قد التقط كلماتها وطلب مني أن يكلمها فناولتها الهاتف دون أن أقول شيئا، فهمَت، طلبَت أن أمهلها كي تركن السيارة، ولأول مرة يلتقي حبيباي. تحدثا ما يزيد عن الست دقائق قبل أن أرى ابتسامتها عند نهاية الاتصال. أعاد ذلك بعضا من هدوئي، فمؤكد أن أحمد استطاع أن يغير فكرتها عنه، ومؤكد أيضا أنني سأحظى بقليل من الهدوء بعد أن يتفقا، ولا أجد حرجا لاحقا في ملاقاته أو التواصل معه دون أن تمطرني فوزية بمواعظها، أو تذكرني بزوجة أحمد وبعالمه الذي أتمنى لو أنه لم يكن.

مضت أيام مدينتي دون أن يتغير فيها شيء، انشغلت كل منا بالعودة لممارسة عملها بعد عطلة باردة. كان الشتاء قد قلّص برياحه فرصة لقاءاتنا، والصقيع الصباحي قد بدأ يتشكل على سماعات هواتفنا. وفي تلك اللقاءات الشحيحة لم تنتقد فوزية

أحمد ولم تمدحه أيضا.. بل إنها ما عادت تتحدث عنه من الأساس.

لم يحزني خبر انتقالها للعمل في إحدى مدن الشرق بقدر ما أحزنني هاتفي الذي ما عاد يرن باسمها إلا نادرا، وهو الذي كانت بطاريته سابقا تسخن ضجرا من طول ساعات أحاديثنا. لم أعد أبتسم وأنا أرى اسمها الذي حصرته بقلبين بنفسجيين تحت مسمى "حبيبتي" ، بل صار لاتصالاتها طعم الملح وفي بحة صوتها إعلان عن دنو نهاية ما.

رنة...رنتان...ثم صمت مطبق يعصر الوجدان... لا أحد منهما يجيب؛ فوزية صمتت عن حكاياتها، وشهرياري بتر أيام فرحي وانسحب تاركا لي وساوس الليل وقنوط النهار... وبين نخلة ونخلة، أجلس... أمتص من البلح غصته، ومن الذّكار نواره، أستلّ من نخلة صبري جريدها ، أنبش به وريد خيباتي التي لا تنتهي، أسند ظهري على جدار متآكل بلل طينه دمع قهري. قلبي يسر لي " شيء ما حدث"، وكذلك فعل طائر الحجل الذي حط أمامي يوشك على التقاط دمعي قبل أن يمتصه الرمل في صمت، ورغم ذلك ظللت أكابر، أمد يد أمنياتي، أستند بها على الجدار كي أقف، لابد أن

أقف. يقابلني وجه أمي حبيبتي، أمد الخطى... أسير كأسير...لكن دون أن أنكسر ..يعيدني رنين هاتفي لكوكب البشر، فتيحة تتصل، لم يكن الوقت مناسبا لأرد، أردت أن أضغط زر إنهاء الاتصال غير أن أناملي الثكلى أبت، وجاء صوتها:

-" أهلا ليلى، غيبة!".

" -مرحبا فتيحة، كيف الحال؟".

كان في صوتها حزن كاذب يخفي فرحا غامضا. سألتني كثيرا وأطالت على غير عادتها الحديث، فتيحة صديقة أيام الجامعة التي لا تتذكرني إلا بالمناسبات، تتصل اليوم بلا شك لسبب. حين ضجرتُ حاولتُ إنهاء الاتصال معتذرة قبل أن تسبقني:

-"كيف حال فوزية؟".

ولكي أتجنب حوارا طويلا حول صديقة ما كانتْ تحبها منذ البداية، قلت في اقتضاب شديد كي أنهي الحديث الذي تمطط أكثر مما يجب:

-"بخير... ".

بمكر سألَت:

-"هل ستحضرين عرس زفافها؟".

دارت الأرض من حولي، وشعرت بإحراجِ اللحظة، كيف سأرد، هل أقول إنني لا أعلم بأمر هذا الزواج، أم أتظاهر بأني مدعوة، وإن كنت كذلك فماذا أقول لو سألتني عن العريس؟. غير أن حياة كانت تمسك بكل خيوط الحكاية وتتحسس عن بُعد نبض ارتباكي، لم تترك لي فرصة الرد، بل أضافت بابتسامة تخيلتها أبانت نابها من خلف شاشة الهاتف:

-"هذا هو أحمد الذي كنت تراهنين عليه، وهي ذي صديقتك فوزية فازت به، كم حذرتك منها مرات ومرات، لكنك لم تصغي يوما...".

لم أسمع باقي ما كانت تثرثر به، كنت هويت من ناطحة سحاب أحلامي.. ولم أجد يدا تتلقف سقوطي السريع، أو قلبا يطفئ اندلاع المواجع المفاجئة داخلي.

لا أذكر كم مكثت واقفة على ذهولي يسند بعضي بعضي.. كنت أعلم أنه لابد لهذه الصفحة أن تطوى بهدوء، دون أن نترك

أثر محو أو تمزيق، كان لابد أن أغادر المركبة بعدما أوصلتك لشاطئ الأمان... ها أنا أفي بوعدي لك ، أنتشلك من براثن الركود ليضج داخلك حركة، ها أنا مزقت عنك الشرنقة التي لفتك أكثر مما ينبغي حتى كادت في لحظة تنسيك الحياة، وها أنت تعود للحياة مع صديقتي، وترى -من خلال الزجاج الذي لمّعتُه لك- مفاتنَها هي ... لا أنا... كنتما معا إذن... كنت أنت الزوج المفترض لي والحقيقي لها... وكانت الفائزة الخاسرة هي...

هي نفسها من كانت تنهاني عن لقائك وتذم لي حبك...وتقسم بأغلظ الإيمان إنك مخادع، كاذب، تافه... هي نفسها التي كانت يوما ما تدعى "صديقتي"..

" أدب"

كانت تمشي عارية من أوراق الحياء، عارضة جذوعها بين الأقسام في خيلاء، تترقى بين صبح ومساء. حصدت كل الامتيازات قبل أن يحين وقت قطافها.

وهي تعبر يوما بالرواق، تحمل بين يديها ملفا محشوا بالأوراق، موهمة الجميع أنها محاضرة، صادفتها إحدى طالباتها السابقات، مالت بكتفها كي تسلم عليها، سقط سهوا ذلك الملف، تناثرت صورها والمدير.. وعادت دونما اهتمام تكمل طريقها باتجاه قاعة التدريس، ممتلئة بكل شيء.. إلا الأدب...

"عصر الزواحف"

ليس كل من اعتلى المنصة بالضرورة يستحقها، فالأدب ليس بدلة رسمية، والأخلاق ليست كلمات رنانة، والجمال الروحي ليس للبيع... إنما يخلق معك وبك وفيك.

تأكدت الآن أنني لا أنتمي لقبيلة الزواحف الميكروفونية التي تشد سراويلها خشية انفلات بطن الزيف والرياء، ولا لقبائل متطاحنة ترفع راية الإقصاء لكل جميل، فالبشاعة ضرورية ليتم قبولك...كن بشعا تكن أجمل...كن سليط اللسان تكن أرقى...وكن تافها...تكن ذا قيمة. رأيته اليوم قبل أن يعتلي المنصة، يروح ويغدو على الفتاة التي ستنشط معه الأمسية، كانت بطنه المنتبجة تكاد تصرخ جوعا وخبثا، وورقته التي دوّن عليها فقرات العرض مرتبة بشكل لا يشبهه، تقدمتُ منه بضع خطوات مرتبكة، بيدي ورقة صغيرة دوّنت عليها كلمات شكر وامتنان، وبلباقة تقدمت منه أسأله إن كان يوافق أن أقرأها على الحضور.

كنتُ استأذنته أمرا بسيطا جميلا وكلي فرح أنه لن يمانع مادام لن يأخذ من الحفل أكثر من أربع دقائق، لم يرفض بفضاضة كما يفعل جلهم لكنه أزبد بسباب لا علاقة له مطلقا

بالمقام، وراح يتهم مرافقه الذي فتح لي طريق الوصول إليه. فضاقت الأرض علي بما رحبت.

خرجت أحمل خيبتي وعلا خلفي التصفيق الذي ظننته في البدء لي، قبل أن أدرك أن صاحب البطن المنتفخة كان قد اعتلى المنصة وراح يفتتح الجلسة بالبسملة والحوقلة وبكلام لبق لا يشبه مطلقا ما سمعته منه وما أزبد به فمه قبل قليل.

"صديقتي... وفقط"

ما إن فتحت باب الحمام وهي ملتفة بفوطته الصفراء حتى عانقت أنفها رائحة السمك المقلي ممزوجة بنسيم البحر المسائي الذي تسلل من باب الشرفة الشبه مفتوح، جسدها المتعب من طول السفر قد بدأ يستعيد نشاطه بعد حمام منزلي ، نظر إليها بابتسامة وهو لا يزال يحرك المقلاة بيد، بالأخرى يقلب السمك، قال:

-"بصحتك".

هربت بجسدها الملفوف بالفوطة نحو الغرفة، أمام المسخن الكهربائي ،حاولت تجفيف شعرها وقد علت جسدها قشعريرة ما لبثت أن اختفت عند أول قطعة قماش دافئة ارتدتها.

صديقها الذي كان يوما ما زوجها قبل أن يفكا الرباط الوثيق، وضع على الطاولة طبق السمك الذي اشتراه في الصبيحة طازجا من أجلها، صار جاهزا تعلوه شرائح الليمون وبجانبه وضع بعناية طبق سلطة بزيت الزيتون وقطعا من خبز القمح الشهي ،

ولم ينس الفاكهة ، فهو حريص جدا على تواجدها بالمائدة حرصه على تلك الأنثى البلورية الوافدة بكامل أناقتها .

الوضع الأمني للبلاد لا يبشر بخير ، ربيع عربي دموي بأتم المعنى وبلاد على حافة التورط في فخ الربيع، سألت سعاد صديقتها الصحفية أحد المارة في لقاء صحفي:

-"هل توافق على تسمية الربيع العربي بهذا الاسم؟".

رد على الفور:

-" وأتمنى أن تدخل الجزائر التاريخ أيضا من خلال الربيع العربي مثلما حدث مع تونس ومصر وليبيا و..".

منذ ذلك اليوم اعتزلت سعاد مهنة الصحافة وانضمت إلى الفن السابع مقتنعة أن حياتنا صارت أشبه بتمثيلية سخيفة.

-"تفضلي صديقتي ".

كان قد وضع الطاولة خلفها ، عقصت شعرها وربطته بفولارة ،استدارت تعانق عيناها ديكور المائدة الذي تحبه مرتبا بأنامله.

"-أوو، شكرا ، منذ مدة لم أجلس على مائدة شهية كهذه، تعرف وجبات الإقامة الجامعية ،الماء والزغاريد"؟.

ضحك على خفة روحها ، هو أيضا اشتاق إليها، أنهكته حياته الروتينية وعمله الذي يأخذ الكثير من وقته، فقررا أخذ إجازة يستمعان فيها لدواخل نفسيهما حتى بعد انفصالهما.

بلاد الأسود تفتح ذراعيها لكل اللاجئين، غرباء كانوا أو أصدقاء.

-" لم تغير شيئا في الشقة".

رد وهو يناولها قطعة سمك" إيسبادون" ، هي لا تعرف أسماء الأسماك ولا أسعارها، كانت فقط تستمتع بمذاقها ورائحتها.

"أعطني حريتي أطلق يديا...إنني أعطيت ما استبقيت شيّا"...بحزن غنت كوكب الشرق لسهرة شبيهة بوداع "خيرة " في أواخر أيام الدراسة الجامعية وستعود إلى بقعتها القاحلة.

الموسم الجامعي قد بدأ عده التنازلي، هي حتما تشيعه بابتسامة كي لا تفقد هيئتها في حضرته، تماما مثلما تفعل حين كان يرافقها للمحطة أيام خطوبتهما، قبل أن يحمل حقيبته السوداء ويختفي وسط زحام الركاب باتجاه مقر عمله، بعدها تبكي بلا حياء تفتش عيناها عنه فلا تراه، فينطق خلفها:

"_الجماعة، بلايصكم ".

لا حسيس رمال هنا ولا صمت صحراء عند الظهيرة رهيب، لا عبق عرعار أخضر يعطر المكان ، ولا قهوة بالشيح وإكليل الجبل يتصاعد بخارها فوق موقد حطب ، ولا رائحة نار بأعواد رتم عتيق ،لا شيء من ذلك كله. عالم يوهم نفسه بالحضارة وهو يحدث قطيعة مع كل أصيل ، هي الهاربة من طول المسافات، هو العاشق أرض الأُسود علمها كيف تسافر فوق الغيم ، كيف تحرر روحها لتحلق على واجهة " فرون دو مير "، بل كيف تكون الصداقة أكبر من كل علاقة أخرى.

هي تذكر حين وقفا معا بإحدى المعالم التاريخية الجميلة، وكيف أنه اختصر لها علاقتهما بعد انفصالهما في كلمتين -حين

ارتبكت كيف تناديه- وكيف صارت طبيعة العلاقة بينهما ليجيبها قائلا:

-"صديقي، وفقط". لتتصبح هي صديقته... وفقط.

حزنت، لعلها لم تدرك معناها وتمنت أن يقول غير ذلك، كيف تكون كل تلك المشاعر الضاربة في العمق" صداقة وفقط" ؟ بل كيف استطاع هو أن يقول لها ذلك .

كان دمعها قد امتُصّ في سرعة هائلة على تلك الأرض العطش ، وهو قد التحق بسيارة الأجرة متحدثا مع السائق، بانتظار أن تغتسل هي بالرمل وتعود كأن لم يكن هناك وقت للحزن.

على قصاصة صغيرة كتب "تمر، برتقال، فستق، سمك".

-"ماذا ينقصنا أيضا عزيزتي؟".

سألها وهو لا يزال جالسا بانتظار أن يكمل كتابة ما يلزم، أجابته مبتسمة من داخل الحما ، تضع اللمسات الأخيرة لخمارها:

-"ينقص القليل من الصبر المستورد عزيزي".

خرجت من الحمام تسارع في ارتداء حذائها بعدما رأته واقفا بانتظارها ليفتح الباب...إنها وهران... رائحة البحر والأشجار تندفع باتجاه الباب المفتوح . نزلا بصمت يعبران السلالم المتآكلة، تقلقه فينبه صديقته التي لا علاقة لها بعالم البنايات الشاهقة . تلك السلالم بدت كأنها منذ عهد الاستعمار الفرنسي، يتسرب الماء عبر الأنابيب فيحدث أصواتا تتناغم مع تلك الريح التي اخترقت ساحة العمارة في تلك الصبيحة الباردة، وشقق كثيرة تنغلق كل منها على أسرار كما هما.

أوقف سيارة أجرة، بلباقة تحدث مع السائق طالبا "المدينة الجديدة " وجهة لهما .كان يتحدث مع السائق حول أمور البلاد، من العجيب أن يدرك أبناء هذا الوطن الفساد الإداري والنهب الذي طال حقوق الشعب وأمواله ولا يستنكره إلا سرا. جرائم العشرية السوداء لا تزال منقوشة على جدران المدينة ولا تزال بقاياها التي شوهت دور السينما فأغلقت أبوابها وصارت صدئة بلون الدم ، حتى مقاهيها غيرت ألوانها، واستطال يتمها ليشمل كل ما كانت وهران تباهي به. صارت هادئة رغم فوضاها، حتى الابتسامة كادت تتوارى محتشمة رغم لباقة سكانها وصمتهم.

صديقتي

هكذا قال لها صديقها وهما يعبران ساحة الورود التي شحب لون أكمامها، وشحّت أيادي قاطفيها. وهما يعبران شارع العربي بن مهيدي، أمسك ذراعها في حركة بعثرت هدوءها وأعادت شريط زهوهما معا، ذاك الذي ظنا أنهما أحرقا فصوله واستبدلاه بصداقة لا تشبه حرائقهما في شيء.

" وحين نكون معا في الطريق

وتأخذ - من غير قصد – ذراعي

أحس أنا يا صديق

بشيء عمــيـق

بشيء يشابه طعم الحريق

على مرفــقي

وأرفع كفي نحو السماء

لتجعل دربي بغير انتهاء"

صديقتي

دمدمت رائعة نزار قباني" شؤون صغيرة "وعيناها في دهشة تلتقط صورا رائعة للأماكن والأشياء. وقد فهمت لأول مرة مرارة كذبة أن يكون الرجل للمرأة ... صديقا.

"الرجال أيضا يبكون"

صوت المفاتيح بالباب ينبئ بشجار قريب، لم تفتحه كما اعتادت حين تسمع خطواته، ابتعدت في صمت، تكتم شهقة خوف وقلق، كان عاد هذه المرة بملامح لا تشبهه، كأنه يخرج من فوهة بركان، وجهه محتقن وعيناه بكل الاتجاهات تفتشان .

لم يقل شيئا، حاول أن يتحدث، خانته كلماته، حاول أن يبكي في حضرة هذا الوجع، تذكر أن الرجال لا يبكون.

فتش في جيبه عن علبة سجائره، بينما راحت سعاد تخلع عنه معطفه المبلل بالمطر، وتسرع في إغلاق الباب خشية أن يرى أحد غيرها كل هذا القهر...سحب نفسا عميقا من سيجارته، حاولت أن تسأله بعد تردد:

-" ما بـ...ك؟".

لم يرد. كان يدخن بشراهة... بقلق... وبخوف أيضا...دمعة ماردة خطّت جدول قهر على خده فاستدار إلى الجهة الأخرى يراوغها لتختفي... هي تدري أنه لا يبكي... وتدري أيضا أنه رجل

عنيد... يكابر دوما ليخفي وجعه. اقتربت منه تدير بيدها الحانية وجهه. في غضب شتت مسارها مزمجرا:

-"كُفّي عن مضايقتي".

استدار يمسح هذه المرة دمعاته الحارقة، يتحسس كف والده التي ارتسمت على خده يوم رآه يبكي رحيل جارته وحبيبته صارخا في وجه براءته "لم أخلّفك أيها التافه لتبكي كما النساء".

تراجعتْ خطوات...صمت أطبق على جدران تلك الغرفة التي بهتت فجأة وشحب نور بهائها ..ثم أنينٌ فدمعٌ حارق يتناثر على خده بلا حياء. وفي خضم كل هذا الوجع... لا يحق للأوراق المتساقطة أن تلوم رياح الخريف....فلا هو اختار أن يسقطها ولا هي استطاعت أن تحكم بالأغصان قبضتها.

اقتربت منه دون أن تكرر سؤالها عن السبب، ضمته لصدرها وهي تقول:

-"إبك يا عزيزي...إبك.. فالرجال أيضا يبكون"

"عدالة"

شهد زورا ليحمي عرض صديقه؛ أضحت زوجته وراء قضبان الخيانة.

"غباء"

استشار الراعي الذئب في أمر القطيع؛ أضحت الزريبة مسرح الجريمة .

الفهرس

صرخة البقاء..07

المجد للنسيان..22

وصار الدم ..ماء..24

غليان..28

شرف..31

امرأة للنسيان..32

صديقتي..36

أدب..44

عصر الزواحف..45

صديقتي..وفقط..47

الرجال أيضا يبكون..55

عدالة..57

غباء..57

EL AMIR
MAISON D'ÉDITION